اجتماع الشَّتِيتَيْنِ

فاطمة باه وأهلها

تأليف: د. حليمة سال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الشاعرُ:

وقد يجمعُ الله الشَّتيتَينِ بعدما
يَظنّانِ كلَّ الظنّ أنْ لا تَلَاقِيَا

قيس بن المُلَوِّح

إهداء

- إلىٰ والديَّ الكريمين اللَّذَين كانا سببًا في كل خير بما في ذلك ارتباطي بالقرآن الكريم وعلومه: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾.
- إلىٰ إدارة المستشفىٰ
- إلىٰ إدارة الملجأ، وأخصّ بالذكر: أخي السيد مايرو سال، وأختي السيّدة اندي فات سال.
- إلىٰ الإعلام السنغالي.
- إلىٰ مجموعة الأخوات اللاتي تبرّعن بالبحث عن والدَي فاطمة باه عن طريق الإعلام، وأخصّ بالذكر: أختي السيدة أم كلثوم سال، والسيدة مري انجاي.
- وإلىٰ كل من شارك في إظهار الحقائق.

أهدي هذا الجهد، مؤمِّلةً راجيةً من المولىٰ العليّ القدير أن يجعله مما ينفع الناس.

شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين أوّلا وآخرا.

والشكر للأبوين بلا حدّ.

ثمّ شكرنا ممتدّ لمن كان له يد في ولادة القصة بهذا الثوب القشيب.

ونخصّ الطابع والناشر والمترجم والقارئ الكريم أينما كان.

خواطر المترجم عن هذه القصة

الحمد الذي نبهنا علىٰ أهمية العبر المستفادة من القصّة، فقال جلّ مِن قائل: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾.

ثم الصلاة والسلام علىٰ من قصّ عليه ربه أحسن القصص دلالة علىٰ أهمية التربية بها.

أما بعد، فمن دواعي السرور والحبور تكليفي بترجمة قصّة (**لقاء الشتيتين بين فاطمة باه وأهلها**) إلىٰ اللغة الفرنسية، هذه القصة المليئة بالفوائد التربوية العظيمة، من تأليف إحدىٰ أبرز العالمات السنغاليات الجليلات النابهات، وهي الدكتورة حليمة سال، المدرّسة في إحدىٰ جامعات الإمارات العربية المتحدة والكاتبة لكتب كثيرة والرئيسة لجمعية الخيرية ذات

المنفعة العمومية المشـهودة. تأتي هذه القصـة حكاية وتخليداً لأحد أعمالها الإغاثية الإنسانية السامية، متمثّلة في إنقاذ فتاة من ناحية مادية ومعنوية، علىٰ نحو يساوي إحياءها: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

إنها قصـة حقيقية من خلال الأماكن المعروفة التي وقعت حلقاتها فيها، وبواسطة الأشخاص الذين تدّخلوا في مجريات أمورها وأدلوا بشـهاداتهم المدهشـة حولها؛ ولكنها تبدو وكأنها خيالية من شـدة مشـاعر الدهشـة والعاطفة الإنسـانية النبيلة والرعاية الإلهية اللطيفة المحفوفة بكل مشهد من مشاهدها!!

أما أنا، كمترجم ومتفاعل مع هذه القصة، فأستشفّ وأشمّ فيها ما يأتي:

[١] تجليات وموافقات إلهية جاءت لجعل هذه الفتاة في منجاةٍ من خطر الضـياع المادي أو المعنوي وربما لتسـليط الأضـواء -أيضًـا- علىٰ هذه الجمعية

الخيرية المباركة ونشر فضلها. وقد يكون هذا بسبب دعاء سابق أو إخلاص صادق أو عمل روحي متقبَّل عند الله من المؤسسين أو والديهم أو أحد أسلافهم.

على كل حال، إذا أخذ المرء بعين الاعتبار لبعض السوابق، قد لا يستغرب وقد لا يستبعد هذا التوجه في محاولة فهم الأسرار الكامنة وراء هذه القصة. فمن هذه السوابق، علىٰ سبيل المثال لا الحصر، ما نُقِل عن جَدّة المؤلفة والرئيسة لهذه الجمعية الخيرية، أنها كانت تصلّي علىٰ النبي ﷺ، عشرة آلاف مرة في اليوم، ووالدها الشيخ عباس سال – رحمه الله ونمىٰ إرثه وبارك في آثاره– حُمِل في بطنها!!

[٢] التنبيه علىٰ البركات العظيمة الكامنة وراء ولادة البنات. إن الإسلام، من خلال نصوصه ومواقف علمائه، يحتفي حفاوة بالغة بولادة البنات وحسن تربيتهن، ويجعل ذلك موجِبا لحصول البركات والفضائل العظيمة في الدنيا والآخرة. في هذا الإطار،

سبق أن كتبت مقالا نشر في الجريدة الرسمية للسنغال "le soleil" وكذلك جريدة "walf quotidien" باللغة الفرنسية تحت عنوان:

"Les grandes bénédictions que l'islam accorde à la naissance des filles confirmées par l'histoire"

بمعنى: «البركات العظيمة لولادة البنات في الإسلام مع أدلة من الواقع التاريخي».

أرىٰ في هذه القصة تصديقا لهذا المقال الذي سبق أن كتبته، فنقرأ من الشخصيات ذات الأدوار الرئيسة البارزة في هذه القصة من النساء: مديرة المؤسسة وكاتبة القصة، والناجية من الموت وبطلة القصة، والمعنية الأولىٰ بها ومرضعتها من ثديها مع ابنها وبنتين أخريين، واللواتي كان لهن الفضل في البحث والتنقيب في الأرشيفيات وعبر وسائل الإعلام بكل تستر وذكاء

وإخلاص. وبطلةً لم يكشف بعد عن سرّها وهي والدة بطلة القصة، تلك التي سكوتها عن الإدلاء بشهادتها أمام الملأ كلامٌ بليغ كما تقول المؤلفة الأريبة، وأرىٰ أن سكوتها ينطوي علىٰ أسرار عظيمة.

معانات وتضحيات نبيلة للأمومة قد تكون من أسباب احتفاف العناية الإلهية ببطلة القصة!!

[٣] تجسيد الدور التاريخي الراقي للمرأة المسلمة في سبيل طلب العلم. أرىٰ في هذه القصة -من منظور تاريخي- تجسيدا لحقيقة أخرىٰ كادت تغيب الآن وتكاد تكون حلقة مفقودة بيننا وبين تاريخنا الإسلامي الأصيل. وهذه الحقيقة هي عناية الإسلام البارزة في تعليم البنات وتأطيرهن التأطير العلمي الراق، الأمر الذي فهمه وعمل به والد المؤلفة -بوصفه من المصلحين الفاهمين لحقيقة الإسلام وتاريخه، رحمة الله عليه- وسعىٰ لتعليم ابنته حتىٰ أصبحت السنغالية

الوحيدة التي -أعرفها- واصلت دراستها حتىٰ حصلت علىٰ شهادة دكتوراه من العالم العربي ومدرّسة في إحدىٰ جامعاتها ومؤلفة لكتب كثيرة بالإضافة إلىٰ إنشائها لمؤسسات عظيمة النفع والتأثير في السنغال وخارجه في أصعدة مختلفة. في الوقت الذي يوجد فيه رجال كثيرون من حملة الدكتوراه من العالم العربي!

لئلا تخلو هذه الحقيقة من دليل ولو مقتضَب، أريد أن أذكر، هنا، أمثلة تاريخية موجزة دالة علىٰ تجذر التأهيل العلمي العالي للجنس النسوي في التاريخ الإسلامي. وأقوم بهذا ابتداء بأمّنا السيّدة عائشة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، التي يقول عنها الإمام ابن عبد البر: «كانت وحيدة عصرها في ثلاثة علوم: علم الطب وعلم الفقه وعلم الشعر».

ويمكن الاستشهاد لهذه الحقيقة، أيضًا، بالتأهيل العلمي الراقي لبنات علماء كثيرين مثل فاطمة بنت الإمام مالك التي كانت تحفظ كتاب الموطأ لأبيها،

وبنت سعيد بن المسيب التي قالت لزوجها: «اجلس هنا أُعلِّمك علم سعيد بن المسيب»، وبنت أسد بن الفرات، وبنت أبي بكر الكاساني، وغيرهن من الشخصيات العلمية النسوية اللامعات في تاريخنا الإسلامي.

وهنا لا أنسىٰ الاستشهاد ببنات المصلح الإفريقي الكبير الشيخ عثمان بن فودي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، اللواتي كنّ عالمات وكاتبات، لا سيما بنته أسماء التي لديّ كتاب من تأليفها بثلاث لغات: العربية والفولانية والهوساوية.

وهذا التأهيل العلمي العالي للنساء كان سائدا في إفريقيا والمغرب الأقصىٰ كما يقول المؤلف المغربي عبد الله العفيفي، قال: «إن أكثر ما عرفت به الممتازات من نساء المغرب الأقصىٰ هو حفظ القرآن ودراسة الحديث والفقه وما إلىٰ ذلك من علوم الدين، وإن أهل تلك المنطقة يذكرون عن ثمانين امرأة أنهن جمعن مع النفاذ في هذا كله حفظَ مدونة الإمام مالك».

وهنيئا للمؤلفة ومثيلاتها في التجسـيد لهذا التقليد العلمي النسوي الراقي في التاريخ الإسلامي الذي كاد أن ينسىٰ، ولا سيما في السنغال.

على كل حال، هذه بعض من الخواطر التي خطرت ببالي وأنا أقرأ وأترجم هذه القصة التي أسأل الله أن ينفع بها نفعا عظيما ومستمرا ومتزايدا وعابرا لحدود الأوطان والقارات والأجيال. كما أسـأل الله أن يبارك في هذه الجمعية الخيرية وأن تكون محفوفة بمزيد من تجليات عنايته وتوفيقه والقبول عند الله والناس في الظاهر وفي الباطن وفي الدنيا والآخرة.

كتبه

المترجم الإمام الحسن سيك

متخصص في الشريعة الإسلامية، وكاتب بالعربية والفرنسية،

ومدير مركز صيد الخاطر للترجمة والتوعية الإسلامية

سبب تأليف القصة

كم كنت آمُل أن يسبقَني إلىٰ ذلك قلَمٌ آخرَ من المختصّينَ والمُجيدين؛ ولكنَّ ما شاهدته، ولم يشاهدْه غيري من قضايا حزَّتْ في النفسِ، وحرَّكتْ كلَّ ساكنٍ فيَّ، وهزَّتني كما هزَّتْ عوالِمَ من الخليقَةِ، إضافةً إلىٰ مسؤوليةِ كتمانِ العلمِ الملقاة علىٰ الكاهلِ، والمسؤوليات الأخرَىٰ المتضافرة، كل ذلك وسواه كانَ من أهمِّ ما طوَّعَ القلَمَ الذي رجوتُ أن يكونَ في سبيل التحديث بالحق سيَّالًا، وفي إيرادِ الواقعةِ أمينًا، لا زيادةَ فيها ولا نقصَانَ، وإيرادًا لبعضِ الشواهد؛ كما أني وددتُ بهذه القصة التي أدهشتني أن أهديَها لغيْرِي من محبِّي القراءةِ والثقافة الإفريقية والحضارة العربية، فلذا اقتضت الضرورة الاتّجاه إلىٰ مسلك القصة، والله المستعان.

المقدمة

لن أقول في مطلع القصــة (كان يا ما كان في قديمِ الزمان)، ولن أسـطّر سـطورًا لأقول لكم كما يقول بعض القصّــاص عندَنا في الغرب الإفريقي مما يوحِي أن ذلك قد يكون صحيحا أو خطأ من أساطيرِ الأولين عند شعبِ الولوف وسواهم من أهلِ:

Lebonne – lepponne – Amommafi Ndannan

بل نقول وبالله نستعين: إنّ هذه القصة التي عشنا تفاصـيلَ كثيرة منها مع فريقنا العامل بالجمعية هي قصـة واقعية، ليسـت من نسـج الخيالِ؛ انبرَينَا من أجلِ العملية التوثيقية الدقيقة من جهة، ومن أجلِ بيانِ أجزاءِ القصــة كاملة، كلٌّ بلســانِه، من جهة أخرَىٰ؛ حتىٰ يتبين الخيط

الأبيض من الخيط الأســود من الكثيرِ من الزيادات التي ليست لها صلة!

وكـان لا منـاص من التوضـيح؛ لا سـيّمـا وأنهـا أُدخلـت إلىٰ وســائلِ الإعلام، وشــبكـات التواصــل الاجتماعي؛ فدُونكموهَا، وبالله نستوفق..

بداية القصّة

عام ٢٠٠٠م.. البداية...!

مع طلوع فجر أحد أيام عام ٢٠٠٠م؛ قدمت على الدنيا طفلةٌ صغيرةٌ لطيفةٌ، تلمع عيونُها؛ أملاً في المستقبل، ورغبةً في الحياة؛ وإنْ كانت بدايتُها غريبةً ومؤلمةً غايَةَ الإيلامِ؛ فقد نشأتْ بِلَا أبوَين؛ لكنّ عناية الله -تعالىٰ- حفّتها، إذ نشأت في أحضان القرآن والتأديب في مؤسّستِي المسمّاة الجمعية الخيرية (O.N.G Alkhairia)[1]..

عن ابنةٍ لِي بارَّةٍ -نحسبُها كذلك- في الملجأ، أحدِّثُكُمْ!

---

(١) الجمعية الخيرية (O.N.G alkhairia): مؤسسة خيرية سنغالية تديرها عائلة الشيخ عباس سال في مدينة لوغا، تسعىٰ الجمعية لإيجاد حلول للمشكلات الاجتماعية كالفقر واليُتم والجهل والتخلّف عن الدراسة وغير ذلك..

اتّصال وراءه العناية الإلهية !

في ساعةٍ من نهار، تلقّت مؤسّسةُ الجمعيةِ الخيريةِ (O.N.G Alkhairia) رسالةً من إدراة حضّانات مستشفىٰ جراند يوف في دكار العاصمة، تتضمّن طلباً بتكفُل طفلةٍ تُدعىٰ فاطمة الزهراء، للعناية بها إلىٰ حين يأتي أبواها لأخذها -إن شاء الله-. وقد تبيَّن فيما بعد أنّ ثمّة روايتين متناقضتين في تفسير سبب ترك الأبوَين طفلتهما، بيد أن أيًّا من تلك الروايتين لن تكون محل تركيز لنا، بل نسعىٰ لنرىٰ وراء كل ذلك من تهيئة اللطيف الخبير لهذه الفتاة هذا المسار الذي أوصلها إلىٰ أيدينا لنحبّها ونعتني بها عنايتَنا بأفراد أسرتنا، بعد أن مرت في المستشفىٰ، علىٰ أيدي نساء ورجال كريمين طيبين مشفقين عليها معتنين بجميع أمورها أيّما عناية حتىٰ وضعوها بين أيدينا بكل محبة وعناية، جزاهم الله عن كل ذلك خير الجزاء.

ولمّا استُشِرْتُ في أمرِ تكفُّلها؛ لم أتردّدْ لحظةً في قَبولِ الطفلةِ وانضمامها إلىٰ مجموعةِ الأيتام الذين أرعاهم -بفضل الله تعالىٰ-؛ لأمرَين اثنين، أوّلهما: أنّ عيش الطفلة في مؤسسة خيرية أصلحُ لها وأفضل اجتماعيًا، وفيها تتعلّم الدين والأخلاق الحسنة، وتصاحب فتياتٍ أخرياتٍ. ثانيهما: كنت وما زلت أعتقد أنّ توفيق الله عَزَّوَجَلَّ كانَ حليفًا لِي فِي رعايةِ هؤلاء الأطفال المحتاجين، وأرىٰ فيهم مشروعًا كبيراً يحمل بين جنبَيه كتاب الله العزيز، وحبّ مجتمعه، وخدمة المسلمين، ولله الحمد وعليه التُّكلان.

فاطمة باه في أَرْوِقَةِ الجمعيةِ الخيريةِ (O.N.GAlkhairia)

حُملت فاطمة باه بتاريخ ١٤/ ٩/ ٢٠٠١م إلىٰ دار الأيتام في لُوغَا[١] التابعة للجمعية الخيرية، ومعها أوراقها الرسمية، ويظهر عليها علائم الصحّة والعافية، ولله الحمد والمنّة. وكان عمرها يومئذٍ سنة.

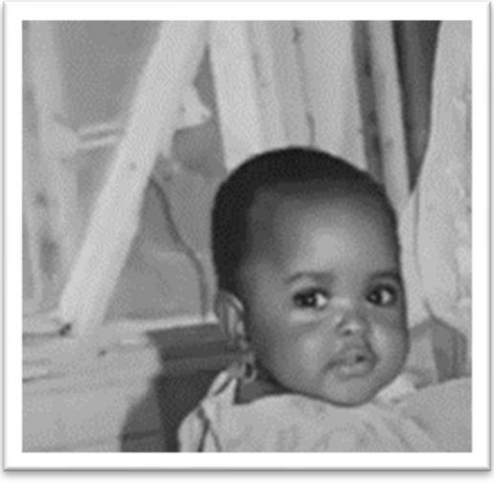

فاطمة باه وقد استكملت عاماً من عُمُرِها

(١) Louga.

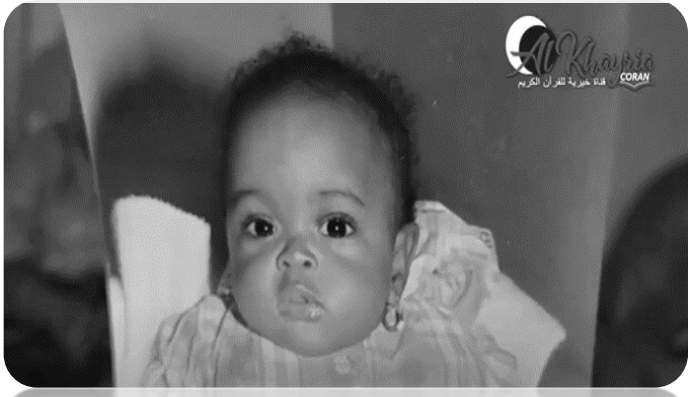

(فاطمة باه) الطفلة وقد تعلّمت كيفيةِ القعود

لم تكن جدران هذا الملجأ لتتخيَّل أنّها ستضمُّ بين عِطْفَيها طفلةً تُشغِل بالَ أهلِ السِّنغال يومًا ما، تلك الطفلة التي غدت مضرب المثَل في عناية الله تعالىٰ بعبده!!! هنا بدأت مرحلة مفصليّة في حياةِ الطفلةِ، مرحلةُ التعلُّمِ والتأدُّبِ والتقلّبِ في برَكات القرآن الكريم. قضت فاطمة أعواماً زاهرة في الجمعية الخيرية، مع صديقاتها وأصحابها، تلعب كالأطفال، وتتعلّم كالكبار، وكنت أفعل بها كما

أفعل مع سائر أبنائي وبناتي الأيتام الذين شرّفني الله تُعالَىٰ بتربيتِهم، ووفقني لرعايتهم، وكان عدد الأيتام في الملجأ آنذاك قرابة ثمانين (٨٠) يتيما.

وكنتُ -دَائِمًا- أَتفقّد أحوالهم وأسأل عن تقدّمهم في الحفظ والتعليم النظامي، وأُمِدُّهُم بهدَايَا تُفرِّح قلوبَهم وتَسُرُّ خواطرَهم؛ كلُّ ذلك لحِرْصِي علىٰ أن ينشَؤواْ نشأةً سَويَّةً، وكنتُ مع ذلك أصبّ عنايةً خاصّة علىٰ فاطمة؛ إذ لم يكن لها أهل يأتون لرؤيتها؛ فكنت أحسب أنّني وإخواني وأخواتي العاملين في الدار ملاذُها الوحيد -بعدَ اللهِ-، لا سيّما وأن فاطمة ابنتي مِنَ الرضاعةِ؛ حيثُ أرضعتْها أختي الشقيقةُ السيِّدةُ أمُّ كلثُوم سَالْ مع ابنِها (مَيْسَه جوب)؛ ممّا زاد من أواصرِ المودّةِ بينَ الأُسْرةِ وفاطمة باه، وزاد في قلب فاطمة حبًّا وانتماءً إلينا، وكنّا نراها امتداداً لنا، ونفهم لغة عيونها، وقد قال أبو الفتحُ البُستيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكُن علىٰ الـدهر مِعوانـًا لـذي أمـلٍ
يرجو نـداكَ، فـإنّ الحرَّ مِعْوانُ

ختمت فاطمة باه القرآن الكريم، وأثناءَ ذلك كانت تجتهد في تحصـيل علم اللغة والرياضـيات والعلوم؛ فجمعـت بين الحُسـنيَين الـدنيـا والآخرة، إلّا أنّ غـايـة غاياتها أن تتأهّل لتكون عضـواً في المدرسـة القرآنية التي تُبنىٰ في قريتها وقد حَرَصتُ مع إخواني وأخواتي العاملين في الدار علىٰ تربيتها تربيةً إيمانيةً؛ مع مزيد معرفة بكيفية التعامل الحسـن مع المجتمع الإنسـانيّ، تمامًا كما يربّي الإنسان أولادَه.

السيد مايرو سال، مدير دار الأيتام بالجمعية، متحدثاً عن فاطمة وقضيتها:

وعن أخلاق فاطمة باه يحدّثنا أخي مايرو سال، مدير دار الأيتام، بأنّهم لم يسجّلوا علىٰ فاطمة يومًا ما أيَّ سلوك أو أسلوب سَلْبِيَّيْنِ -علىٰ الإطلاقِ-.

السيّد مايرو سال، مدير دار الأيتام

ويستأنف قائلاً: كانت مهذَّبة أديبة ذات أخلاق حسنة؛ ممّا يدلُّ علىٰ أصالةِ طينتِها، وكانت مجتهدة في

دراستها، محبوبةً بين زميلاتها والقائمين على هذه الدار، دائمة التبسّم والبشاشة، تتصرّف بسكينة وراحة كأنّها بين أهلها وأقربائها، في حضـانة أب رحيم وأمّ مشـفقة، تلك عِبارةُ السَّيِّدِ مايرو سال.

وما ذاك إلّا بتوفيقٍ من الله تعالىٰ في تأليف القلوب المؤمنة وتوادّها وتراحمها وتعاطفها، وكنّا نجتهد في ذلك امتثالاً لقوله ﷺ: «**مَثَلُ المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمَثَلِ الجَسَدِ الواحد، إذا اشتكىٰ منه عضوٌ تداعىٰ له سائرُ الجسدِ، بالسهَرِ والحمّىٰ**»[1]، ولمّا علم الله -سبحانَه- حرصنا في الجمعية على تطبيق هذا المعنىٰ النبويّ النبيل؛ أعاننا علىٰ الأمر، فله الحمد والمنّة.

(١) رواه الإمامان البخاريّ ومسلم رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ، في صحيحهما، من حديث سيدنا النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وكان أبرزِ مَن تولّىٰ رعاية فاطمة تهذيباً وتأديباً وعنايةً وإرشاداً: أختي السيدة انْدَي فاتُ سال، مديرةَ الملجأ، التي لم تألُ جهداً في تربيتها علىٰ عينِها كما تربّي أبناءَها؛ حتَّىٰ إنّ فاطمةَ كانت تعدُّها أمَّها، وتناديها بِـ(أمّي).

السيّدة انْدَي فاتُ سال، مديرة الملجأ

ومعها يداً بيدٍ، وبوجه مباشــرٍ أكثر، الســيدةُ «ولِي نجاي»، المشرفة المباشرة للأطفال.

السيدة وُلِي انجاي،

مسؤُولة المربيات في ملجأ الأيتام

مع السيّدة وُلِي انجاي، مسؤُولة المربيات في ملجأ الأيتام:

تقول السيدة تان ولِي انجاي:

«التحدُّث عن فاطمة باه أمرٌ ليس فيه صُعُوبَةٌ؛ مِمَّا لاحظته عليها ظاهرا جليا -منذ أتينا بها مذ كانت في المهد حَتَّىٰ الآن وقد بلغت- التزامَها بالأدب الجميل، وسلامة الدين، والتعامل الحسن مع زميلاتها في الملجأ وغيره، لا تتدخّل في أمرٍ لا يعنيها، ولم تُسجَّل عليها أيُّ شكوىٰ أو أيّ فعل لا يليق، وهي مُجتهدة في دراستِها، زارت بيتي مراتٍ قليلة؛ بغرضِ المُراجعة الدراسية مع حفيدتي. وهي خاتمة لكتاب الله، متصفة بالهدوءِ والصمتِ، تفيض رحمةً ولطفا، وبين جنبَيها أنوثة راقيةٌ، وأمومةٌ مرهَفة، حتّىٰ إنّها مذ بلغت سن التمييز وهي تعتني بصغار اليتامىٰ الذين أتوا بعدها، ويبلغ عددهن خمس عشرة يتيمة، تربيهن وتُعلِّمهن الدين والأخلاق الحسنة، وكنّ إذا رجعن من المدرسة التفَفْنَ حولَها؛ فتغير لهنّ ملابسَهن، وتهتم بهنّ، وتراجع معهنّ الدروس،

وهنّ يحترمنها كثيرا، ولا يخالفنها في أمرٍ.

وهذا الأمر الذي شـهدته من أدب فاطمة وتحمُّلِها للمسـؤولية لم يكن خفيّـًا علىٰ غيري، بل قد أقرّ بذلك كل من لقيها، سواء لقيها مرّةً أو عاش معها طويلاً!

ومن لطيف الأخبار أنّه لمّا تعرّفنا علىٰ أهل فاطمة باه -وسـتعرف أيها القارئ الكريم قريبـًا قصـة التعرف علىٰ أهلها-، وبدأنا بالاسـتعداد للقائهم وتهيئة فاطمة لرؤيتهم؛ ذهبتُ بها إلىٰ المستشفىٰ؛ لإجراء الفحوصات الطبية اللازمة، وبعد أن أنهىٰ الطبيب مهمّته أشـاد بأدب فاطمة، قال: ما شاء الله!! بنت طيبة ظريفة، طرحت عليها عدة أسـئلة، وكانت جميع إجاباتها صـادقة، مفرحة للقلب، ورغم أنّي أكثرت الأسـئلةَ إلّا أنّها كانت ذات نفَس طويل، وصـبر جميل، وقد أخبرتني كيف ربّيتموها طوال هـذه السـنين؟!! إنها من البنـات الصـالحات المتربّيات تربية حسـنةً. فقلت للطبيب: هكذا ربيناها في

الملجأ، وهكذا تخلّقت معنا، وبما أنك فرحت بها لكونها أجابت أجوبة مفرحة يطمئن بها القلبُ؛ فنحن إذاً لا نملك إلا أن نقول: الحمد لله الذي وفقنا إلىٰ إحسان تربيتها علىٰ أكمل وجه، ونسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يحفظها حفظا منيعا من كل سوء». انتهىٰ كلام السيدة تان وُلِي انجاي.

خفايا الأشواق لا بدّ لها من شروق:

وتمضِي الأيّام سراعاً بينما فاطمة في أحضاننا، نحبّها وتحبّنا، ورغم سعادة الفتاة بين صديقاتها وخالاتها وأخوالها من الرضاعة؛ إلّا أنّ أمرًا في نفسِها كانت تضمره! ومَن لا يُضمِر مثله؟! هو سؤال يتبادر إلىٰ ذهنِها كلّما سمعت كلمة (أب) أو (أمّ)، تقول: مَن أبي؟! ومَن أمّي؟! هل أراهما يوماً؟ وقد أخبرتْها أمّي السيدة رقية باه -رحمها الله-؛ يومَ كانت تقضي الإجازة الصيفية عندها، أنّ أبوَيها علىٰ قيد الحياة.

حزن دفين في أعماق نفس فاطمة، كانت تفصح لي أحيانًا عن بعضِه بِقَوْلِهَا لِي: خالتِي حليمة! أنا لا ينقصُنِي شيءٌ؛ غير أنّي أريد أن أرىٰ أمّي وأبي، أودّ التعرّف عليهما!

في واقع الأمر، كنت طيلة العشرين سنةً الماضيَةِ أبحثُ عن والدَيها، وأجتهد في الوصول إليهما؛ ما استطعت إلىٰ ذلك سبيلا؛ لكنّي لم أجعلها قضيَّةَ رأيِ عام، أي: قضيّةً عامّةً تُنشَر في وسائلِ الإعلامِ؛ حتّىٰ ألهم اللهُ -تعالَىٰ- أختي السيّدةَ أمَّ كلثومٍ أنْ نُعلنَ عَنْ سُؤالِنَا الكبيرِ علىٰ الإعلام، وتولَّت -هي وصديقاتها- هذا الأمر، جزاهنّ الله خيرًا علىٰ ما بذلن من جهودٍ جبَّارةٍ.

السيّدة أمّ كلثوم ســـال، مرضعة فاطمة بـــاه، ودورها الفعّال في البحث عن والدَي فاطمة

السيّدة أمّ كلثوم سال، مرضعة فاطمة باه في الملجأ

تقول الســـيدة أم كلثوم ســـال: «كنت في زمن من الأزمان أعمل -تطوّعًا- في ملجأ الأيتام التابع للجمعية الخيرية، أرعىٰ أيتام الملجأ، وكنت آنذاك حديثة الولادة

بابنِي (مَيْسَـهْ)، وكنت أرضـعه هو وطفلتين رضـيعتَيْن – توأمًا–، أُتِي بهما إليّ وقد ماتت أمُّهما، ثم أَتوا إضـافة إليهما بفاطمة باه؛ لأرضعها معهم، فصرت أرضع أربعة أطفال، ثلاث بناتٍ وولدي (مَيْسَـهْ)، أحتسـب الأجر من الله عَزَّوَجَلَّ، وكنت أرضـعهم رضـاعةً طبيعيَّةً وبمُرضِـعٍ صناعيٍّ؛ لعدم كفاية الحليب الذي لَدَيَّ!

أما فاطمة باه، فإنِّي منذ أرضـعتها مَا عرفتُها إلا هـادئـةً مُؤدبـةً، لم تكن تبكي كثيرا، ولا تُكثر الحركـة؛ بخلاف بقية الأطفال، حتىٰ إذا ما بلغت سـن البلوغ؛ ما رأيت منها إلا الأدَبَ وحسـن الخلقِ والذكاء؛ لكنّها تأخرت في المشي، فقد كانت تحبو وهي في سن المشي، بينما يمشـي أقرانها، حتَّىٰ جاءتنا امرأةٌ لها خبرة في تربية الأطفال وتدريبهم، اسـمُها مير[1] سـينه mere sena،

(١) **مير:** كلمة فرنسية تعني: والدة، أو أم، ورسمها باللغة الفرنسية كما في المتن: mere.

فكانت تُمَشِّيهَا شيئًا فشيئا، وتشجعها، وكانت معها زميلتُها خديجة سيك تساعدها؛ حتىٰ استطاعت فاطمة المشي بنفسها -ولله الحمد-.

بعد هذه المرحلة، فارقتُها ذاهبةً لاستئناف مهمّاتي الوظيفية، وهي ما تزال في الملجأ تكبر شيئًا فشيئًا، وكانت تزورني أحيانا في بيتي في العاصمةِ دَكار، وتعرَّفَتْ علىٰ أولادي الذين هم إخوتُها من الرِّضاعةِ؛ فصارت علاقتها بهم قوية، وكانت تتواصل معهم عبر اتصالات هاتفية؛ لتقوية أواصرِ الأُخُوَّة، وأحيانًا أزورُها في الملجأ بين الفينَةِ والأُخرىٰ.

وكنّا في الصيفِ حين يغدو الأطفال إلىٰ بيوت أقربائهم؛ نأخذ فاطمة معنا إلىٰ بيوتِنا لتقضي العطلة معنا! وكنّا نتناوب في استضافتها، وفي صَيفِ ٢٠١٦م - ٢٠١٧م، استضفت فاطمة عندي -في بيتي في دكار-؛ لتقضي عطلتها الصيفية، وذات نهار وبينما نحنُ جلوسٌ نتبادل الأحاديثَ؛

فاجأتْنِي فاطمةُ بِالقَوْلِ: يا خالتي! لقد أخبرتني جدّتي السيدة رقية باه بأنّ أَبَوَيَّ على قيد الحياة، وأنا أودّ أن أراهما وأقضي عندهما عطلتي الصيفية؛ مِثلمَا يقضي أكثرُ زملائي في الملجأ إجازاتهم الصيفية عند أسرهم!؛ فقلتُ لها: نعم؛ سيكون ذلك إن شاء الله، سأتحدث في هذا الأمر مع السيدة حليمة، رئيسة الجمعية الخيرية[1]، لا تشغلي بالك بهذا الأمرِ! سنبذل الجهود لتنفيذ هذا الطلب في أسرع وقت ممكن -إن شاء اللهُ-؛ فاستبشَرَتْ لكلامي حين وعدتُها بذلك؛ حتى رأيت الفرحةَ في وجهها تبرُق!!

صمتت فاطمة هُنَيهَةً، ثم نظرتْ إليّ وعيونُها تلمع فضولاً وتنبض بالحياة وقالت: «قالت لي جدّتي السيدة رقيّة باه إنّ أمي اسمها أم كلثوم»، وسكتتْ مترقّبةً بشغفٍ بالغٍ مزيدًا من المعلومات عن أمّها؛ فقلتُ لها: هذا الخبر غيرُ صحيحٍ! وكنتُ قد ظننت في نفسي أن أمي السيدة

(١) ومؤلفة القصَّةِ التي بينَ يديك.

رقية قالت لها ذلك لأنّي أرضعتُها، وأنا اسمي أم كلثوم؛ لذلك قالت لها "أمّ كلثوم اسم أمّك" تسليةً وجبراً لها، وتابعتُ قولي لفاطمة: أنا لست أمك الحقيقية التي ولدَتْكِ!؛ لكنَّني أمُّك من الرضاعة، إنما أرضعتك -فحسبُ-! أمّا أمك التي ولدَتْكِ؛ فلا نعرف أين هي حتىٰ الآن!

ثم اكتشفنا بمُرورِ الأيّامِ أنَّ أمَّهَا التي ولدَتْها اسمَها أم كُلثوم -أيضًا-؛ فسبحان الله، وهذا مما ينبغي الانتباه له!

وكانت لي صديقة تعمل في مستشفىٰ (le Dantec)، فحدثتها في أمر فاطمة باه، ووضَّحت لها ظروفها، فقالت لي: سأتحدث- إن شاء الله- مع ممرضةٍ أعرفها في المستشفىٰ، عن هذا الموضوع. ثم لم يتم ذلك الأمر؛ لأن الممرضة كانت غائبة عن المستشفىٰ؛ إلىٰ أن جاءني أمر السفر إلىٰ كندا؛ لمهمة العمل في

السفارة السنغالية؛ فتركت فاطمة؛ لكن التواصل بيني وبينها هاتفيا لم ينقطع.

لم أوفَّق في الوصول إلىٰ والدَي فاطمة باه كما وعدتها حين طلبت مني ذلك؛ لكنّي كنت أسعىٰ في سبيل ذلك، كنت أتردد بين صديقاتي؛ بحثًا عن والديها عبر الهواتف وغيرها، وكلمت إحدىٰ أعزِّ صديقاتي وَتُدْعَىٰ (نفيسة)؛ كي تساعدني في البحث؛ حتىٰ انتهينا في البحث إلىٰ امرأة اسمُها آنَهْ Ana؛ فدلتنا علىٰ امرأة تعمل في مستشفىٰ جراند يوف grand yof –المستشفىٰ الذي وُلدت فيه فاطمة–؛ لتبحثَ في الأرشفةِ؛ لعلها تعثر هناك علىٰ شيء يمكن من خلاله أن نتعرف علىٰ والِدَيِ الطفلةِ التي ولدت قبل أكثر من عشرين عامًا، ولم يعرف لها سَنَدٌ، لا والدٌ ولا والدةٌ، ولا أهلٌ ولا عشيرةٌ، ثم أفادتنا تلك المرأة بأن جميع الأرشفة محولة لمستشفىٰ CTO؛ فاتجهنا إلىٰ ذلك المستشفىٰ، وسألنا المسؤول المختص

بالأرشفة؛ فطلب من إدارة الملجأ أن تبعث بخطابٍ رسميّ فيه طلب استخراج أوراق فاطمة من الأرشفة؛ فطلبت مِن السيد مايرو سال مدير ملجأ الأيتام في لوغا؛ حيث تعيش فاطمة حاليا، أن يوجّه خطاباً رسمياً لمستشفىٰ CTO؛ لاستخراجِ أوراق ثبوتية للبنت فاطمة؛ ولكن لا جدوىٰ -مع الأسف-، لم نعثر علىٰ شيء يُفيدنا بمعلومات عن والدَيْها!

ووافقَ ذاك الوقت وفاة والدتي رقية باه -رحمة الله عليها-؛ فتوقفنا عن البحث؛ انشغالا بالعزاء، وفي أيام العزاء أتتني بعض صديقاتي؛ لتقديم واجب العزاء، وكانت فاطمة في بيتنا تطوف بيننا مع فتيات أهل بيتنا؛ خدمةً للضيوف وتلطّفاً معهم؛ فمرّت بين أيدينا -أنا وصديقتي مري فاي-؛ فقصصت عليها قصتها؛ رغم ما كنا فيه من حزن علىٰ وفاة والدتي، وقلتُ لها إنها ابنتي من الرضاعة، أنا التي أرضعتها!

وقلت لها: أنا الآن بصدد البحث عن والديها؛ أيّ سماء تُظِلُّهما، وأيُّ أرضٍ تُقِلُّهما؟! فاقترحتْ عليّ صديقتي مري انجاي إنشاءَ مجموعةٍ عبرَ (واتساب) إحدىٰ وسائلِ الإعلامِ الجديدِ وشبكات التواصُلِ الاجتماعيِّ، وأخبرتني أنَّهَا قد تعرّضت لمثل هذه القضية؛ لكن جعل اللهُ لها فيها فرجًا ومخرَجًا؛ وكانت نتيجتها بشارة طيبة.

وبالفعل، وبعد عودتي إلىٰ كَنَدَا؛ قمنا بإنشاءِ المجموعةِ الواتسابيةِ برئاسة صديقتي مَرِي انجاي، مكونة من أخوات مجتهدات، حريصات علىٰ فعل الخير، وقد عهدناهن في غاية الاهتمام بقضية فاطمة باه.

ثم اتفقنا علىٰ خطة عملٍ جماعية، تتركّز علىٰ التحكُّمِ المتقنِ في طريقة البحث، والحذرِ الشَّديدِ من ذِكْرِ اسم البنتِ؛ خشيةَ أن يدَّعي أناسٌ بأنها من أفراد أُسرتِهم والحقيقة خلاف ذلك، واقترحت إحداهن أن

يكون البَحْثُ أيضـًا في وسـيلة تواصـل اجتماعية أخرىٰ هي (فيسـبوك) كَموْقع يُتَّخَذُ لإنشـادِ الشَّـخصِ الضَّـائعِ والمفقودِ؛ فقررنا كتابةَ رسالة تُفيد أن عندنا طفلة صفتُها كذا وكذا دون ذكر اسـم الأبوَين، ثم بإشـارةِ إحدَىٰ الأَخواتِ قررنا ذكر اسـم الأبِ والأمِّ؛ لتسـهيل العثور علىٰ أبويها؛ وتأسِـيسًـا علىٰ ذلك؛ قُمنا بتحريرِ إشـهارِ إعلانٍ حَوْلَ قَضِيَّتِهَا.

مضىٰ أسبوعان ولم يأتِنَا أيُّ خبرٍ؛ فاتّجهتِ الأنظارُ إلىٰ حَلٍّ آخرَ؛ حيثُ أخذت إحداهن تنشـر الخبر عبر المجموعات؛ تحسُّسًا للحل؛ حتىٰ بلغ الخبر أختًا تُدعَىٰ جينبة (DIEYNABA)، وكانت تسـكنُ جراند يوف، المدينة التي فيها مسـتشـفىٰ جراند يوف الذي وُلدت فيه فاطمة باه، وقالت: سـأبذل جهدي يوميًّا في الذهابِ إلىٰ المستشفىٰ؛ للبحث في الملفات؛ لعلي أجد حلاً.

وقد وفَّت جينبة (DIEYNABA) بما وعدت؛ فكانت تذهب كلَّ صباحٍ إلىٰ المستشفىٰ؛ للبحث في الملفات؛ لكنها لم تجد في الملفات شيئا يتعلق بفاطمة باه، وحينئذٍ لمعت في ذهنِها فكرةُ نشرِ الخبر عبر إذاعة ZIC FM ببرنامج (TEUSS)، واستشارتْنا فأشرنا بالموافقة، وكان لديها رقم هاتف إذاعة برنامج TEUSS؛ فاتصلت بالبرنامج وطلبتْ أن يكون البلاغ رسميًّا؛ بحيث يُكتب اسم المبلغ؛ وهكذا تولّت السيدة مري انجاي الأمر؛ وكانت تعيش في السِّنِغالِ آنذئذٍ.

ولمّا اكتملت أركانُ الإعلان؛ قامت السيدة مري انجاي بتسجيلِ رسالة صوتيةٍ وضَّحت فيها جميع الصفات اللازم توافرها في الإعلان؛ ليكون واضحًا بيّنًا، ثم قدمتها لبرنامج (TEUSS)؛ ولم تخبر مري انجاي حتىٰ الآن أحدًا كم دفعت من رسوم تكلفة الإعلان في البرنامج؛ فقد دفعت الرسوم المطلوبة لوجه الله تعالىٰ، وكلما سُئِلَتْ كم دَفَعتْ

من رسـوم الإعلان لا تجيب عن هذا السـؤال؛ فجزاها الله خيرا. هذا ما جادت به ذاكرتي وتيسـر لي إيراده في قضـية فاطمة باه». انتهىٰ كلام السيّدة أمّ كلثوم سال.

امرأةٌ تتصل بالإعلامِ لتدل على أولياءِ أمرِ فاطمة:

لم نلبث بعد الإعلان على الإذاعة إلّا قليلاً؛ حتى تواصلت مع الإذاعة امرأةٌ وأخبرتهم أنها تعرف أولياء أمر هذه الفتاة، وأنّ الواقعة مطابقة لما يعرفونه، وأنّ أهلها كانوا جيرانَهم من عشرين عاما!؛ لكنّهم انتقلوا بعدُ إلى مدينة بعيدة اسمها (مابو) MABO؛ وهنا بدأت بشائرُ بلوغِ الأهلِ تعلو الأفق؛ وازددنا سرورًا واستبشارًا لمّا سمعنا النبأ.

ولرب نازلة يضيقُ لها الفَتَى
ذرعًا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتُها
فُرِجَتْ وكان يظنّها لا تُفرَجُ

ويُروَى: وكنت أظنّها لا تفرج.

موقف الأب حين سمع الخبر لأول مرة، ودهشة لَمَه (خبّاز الملجأ) :

ولمّا تمّ الاتصـــال بأهلها وتلقّىٰ الأبُ النبأَ؛ كاد أن يزيغ عقلُه دهشـةً؛ لولا أنّ اللهَ ألهمَ ابنَ أختِه لَمَهْ LAMA بأن يُســعِف الموقفَ وأكّدَ لهُ أنّها حَقًّا ابنتُه! تلك التي وضــعتها زوجتُه منذ عشــرين عاما!! العجيبُ فِي الأمرِ أكثر أنّ ابنَ أُختِه هـذا، واســمه محمـد رَمرَان بري MOUHAMAD RAMARANA BARRY، والمشـهور باســم لمه LAMA، كان يعمل طيلة الأعوام الماضــية في مخبز الملجأ الذي فيه فاطمة، وكان يراها، ويعطيها الخبزَ؛ ولكن لمْ يَجلْ في خاطرِهِ يومًا، أنّها ابنةُ خالِه! وهذا من حسـن تدبير المولىٰ سبحانه، وكلّ تدبيره حسـن؛ سبحانه (فعَّالٌ لِمَا يُريدُ).

لمه، ابن عمّة فاطمة باه،

الذي كان يعمل في مخبز الجمعية

يقول لمه LAMA ابنُ عمة فاطمة: «سافرتُ إلىٰ مدينة لوغا؛ للعمل في مخبز (الجمعية الخيرية)، ودّعت أمي؛ فأوصتني بكلمات ما زالتْ تَرِنُّ في أذني، وتختلج في صدري، ولا أزال أستعين بها في تعاملاتي الحياتية مدَىٰ الحياة، قالت لي: يا بُنيَّ، أنت ذاهب إلىٰ مكان الغربةِ؛ فإنِّي أوصيك ألّا تضرب طفلًا، بل أكرمه.

ولما وصلت لوغا وسكنت في ملجأ الأيتام؛ قدر الله لي أن أكون جارا للأيتام، وتذكرت وصية أمي؛ فاتصلت بها، وقلت لها: أماه! كأنك كنت تعلمين من قبل أنّي سوف أسكن مع الأيتام، إنني أسكن مع الأيتام، والمخبز الذي أعملُ فيه يعمل لصالحهم.

كانت علاقتي بهم وطيدة وطيبة؛ صاروا يألفونني وآلفهم، ويحبوني وأحبهم؛ غير أنني ميزت من بين اليتامىٰ طفلتين توأمًا صغيرتين، أضعف من غيرهما من الأيتام؛ لِمَا علمت من خبرهما بأن أمهما توفيت بعد

ولادتهما، وكنت أشفق عليهما كلما رأيتهما.

والعجب أن فاطمة باه -وهي ابنةُ خالي- لم تتجه ملاحظتي إلىٰ أن فيها شَبَهًا لصلة القرابة، ولعل السبب في ذلك عدمُ معرفتي عنها شيئا، ولأن جميعَ اهتماماتي كانت متجهة إلىٰ الصغيرتين حليمة وحوىٰ (التوأم)؛ نظرا لظروفها الحرِجة.

وبعد مدة من الزمن غادرتُ المخبزَ -مخبزَ الأيتامِ-؛ بعد أن غادره مسؤولِي الذي كان قد عيَّنَني فيه، وانتقلت إلىٰ مكان آخر في لوغا أعمل فيه؛ فأصبحت مواطنا عاديا، كواحد من أهلها، ثم شاءَ اللهُ أنْ تزوجت في لوغا، ورزقت هناك عِيَالًا، ولله الحمد.

وفي يوم من الأيام، سافرت إلىٰ العاصمة دكار لزيارة أختي حوىٰ بري، وكُنتُ قد خرجت لزيارة بعض أصدقائي في بعض أحياء دكار؛ فاتصلت بي أختي وأنا في بيت صديقي وقالت لي: إن أمي تطلب منك الاتصال بها

للضرورة؛ لأن أمرا ما حصل في لوغا؛ فأخذت أتصل بها مرارا وتكرارًا؛ لكنْ لم يصل الخط لها، وحاولت الاتصال بزوجتي؛ فكان الخط مشغولا، ورجعت أتصل بأمي؛ فكان الخط مشغولا أيضًا؛ فأوجست في نفسي خيفة بأنَّ شأنًا عظيما قد حصل في الأسرة؛ فكررت الاتصال مرة أخرىٰ بأمِّي فردَّتْ عليّ -والحمد لله-، وقالت لي:

بلغني أن بنتًا اسمها فاطمة في لوغا بملجأ الأيتام في الجمعية الخيرية، وقيل لي إنها ابنةُ خالِك، وَأَنَّهَا كانت توأمًا مع أخِيهَا، وماتَ توأمها؛ وبقيَتْ هي حيّة، فقلت لأمّي متعجبا: كيف يكون ذلك؛ وأنا مكثت عندهم سنوات عدة، ولم ألاحظ منهم بنتا تُشبه أحدًا من أفراد الأسرة!!؛ لكن دعيني أتأكَّدُ، وإنّي مرسل زوجتي (أَجِي) إلىٰ الملجأ لتَتَبَيَّنَ صحَّةَ الخبر.

واتصلتُ بزوجتِي (أَجِي)، وأخبرتها الخبر وقلت لها: اذهبي الآن إلىٰ الملجأ، وقولي إني زوجة "لَمَه"،

وكلهم يعرفونني. فذهبَتْ زوجتي؛ ووجدت هناك امرأةً اسمُها تان ولي انجاي Tane wouly، وهي المربية لهم في الملجأ، فلمَّا رأت فاطمة من بين اليتامىٰ قالت وبدون مقدماتٍ: إه... إه!! هذه مثل أمها؛ بكلامها، وملامحها!!! فأخذت الدموع تذرف؛ غير أن فاطمة كانت تضحك كثيرًا وكثيرًا؛ من شدةِ الفرحِ!!! ثم قلت لزوجتي: خذي لفاطمة لقطة صورة وأرسليها لنا؛ ففعلت ذلك بإذن أهل الملجأ، وبذلك صحَّ الخبرُ أنها هي تلك الطفلة التي قيل لأبوَيْها: إنها قد ماتت! كانَ ذلكَ قبلَ عشرين عاما!!!

وهذا مما يذكر بقول الشاعر:

.....

وطب نفسًا إذا حكم القضاءُ

ولا تجزع لحادثةِ الليالِي

فما لحوادثِ الدنيا بقاءُ

وكن رجلا علىٰ الأهوالِ جلـدًا
وشــيمتك الســماحة والوفاء
ولا حـزن يـدوم ولا ســـرور
ولا بؤس علـيـك ولا رخـاء

لما رأيتُ صـورَةُ فاطمة استوعبت أنها -فِعْلًا- مِن أفراد الأســرة، ولم أنتبه إلّا الآن؛ فأرســلت الصــورة في مجموعة الواتساب لأسـرتنا؛ وصـار كلما رأىٰ الصـورة أحدٌ من أعضـــاء المجموعة قال هذه مثل فلانة، يعنُون أمَّهَا.

ثم غادرت العاصـــمة دكار مرتحِلًا إلىٰ لوغا، فلما وصلتُ لم يكن قلبي يطاوعني أن أرىٰ فاطمةَ التي عشت معها في ملجأ واحد أراها يوميا منذ ســنوات، ولم أعرف أنها ابنةُ خالي؛ لقد صـعُبَ عليَّ رُؤيتها؛ فأقنعتني زوجتي بالذهاب؛ فعزمت علىٰ ذلك، ولما وصــلتُ إلىٰ باب الملجـأ؛ تردَّدتُ قليلا مـدة عشــر دقـائق، ثم دخلـت؛

فوجدت جمعَ الموظفين، وهم في غاية الفرح بما حدث لفاطمة من عثُورها علىٰ أبوَيْها وأهلها؛ فسلموا عليّ بحفاوة وشوق؛ لطول العهد برؤيتهم إيّاي.

ولما رأيت فاطمةَ -ابنةَ خالِي- أخذتني الدهشة مرّة أخرىٰ ولم تكَدْ رِجْلَاي تحملني؛ لكنّي تحاملتُ علىٰ نفسِي، وقلت: الله أكبر، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله!!! ثم بكيت رغم كراهتي أن يرَوْا دُمُوعِي؛ فأخذوا يُسكتونني، ثم سألتُها: هل تعرفيني؟! قالت: نعم، أنت كنت تعطينا الخبزَ؛ لَمَّا كُنتَ تسكن عندنا؛ فسألتُها: هل ضربتكِ يومًا من الأيام؟! أو شددت عليكِ في شيء؟! أو نهرتُكِ؟! قالت: لا، لا.. لا أنا ولا أَحَدًا من أيتام الملجأ، بل كنتَ تُعطينا الخبزة والشاي وغير ذلك برفقٍ ورحمةٍ؛ فقلت في نفسي: الحمد لله، وتذكرت وصية أمي من قبل ألّا أضرب طفلا!!!، فلو كنت قد ضربتها أو آذيتها بشيء؛ لأصابتني في ذلك معرَّة وحسرة.

وكانتِ الفرحةُ قد اشتدّت أكثرَ يومَ اللِّقاءِ؛ إذ جاءت الأسرة كافة؛ للقاء فاطمة، بمن فيهم أبوها وأمها، يا لها من فرحة!!! ونزلوا عندي في بيتي، وكل من سمع بهذا الحدث من أفراد الأسرة؛ يأتي ينزل عندي في بيتي في لوغا؛ حتىٰ اجتمع جميعُ أفرادِ الأسرةِ في البيتِ؛ فباتوا ليلتَهم بما هو فوقَ الوصفِ، فلمَّا أصبحنا؛ عزمتْ إدارةُ الملجأ علىٰ ضيافتهم؛ فما تركوا شيئا مِمَّا يُقرَىٰ بِه الضَّيْفُ إلا أحضرُوه؛ وأكرموا أسرة فاطمة إكرامًا واسِعًا كبيرًا، فأكلُوا وشربوا كلَّ ما لَذَّ وَطابَ، وفرحُوا غايةَ الفرحِ بهذه الضيافةِ العظيمةِ التي يندر مثلها في هذا الزمنِ المُعاش!!!" انتهىٰ كلام لمه.

وصول أهل فاطمة إلى الملجأ، مقرِّ إقامة فاطمة مدةَ عشرين ربيعا:

جاء الأبوان مع مرافقيهم إلىٰ حيث فتاتهم تُقيم في الملجأ، وكان يومًا مشهودًا من أيام فاطمة!!! وأيّ سرور يساوي سرور لقاء البنت مع أبوَيها بعد فراق طويل؟!! بل أيّ ابتِهاجٍ وسعادةٍ يوازيانِ ذلك بعدَ حُسبانِ مَوْتٍ، ولئن كانت فاطمة سعيدة بأبوَيها، فأبواها بها أسعد إذ تلت عليهم بعضَ آياتِ الذّكرِ الحكيمِ؛ بلسان فصيح، وهي في حلّتها الأنيقةِ الرزينة (كما في الصورةِ أدنَىٰ هذه السطورِ).

فاطمة تتلو مطلع سورة البقرة بحضور أبوَيها وجمعٍ من الناس

ولســـت بحاجة إلىٰ أن أخبركم بالدموع الذارفةِ والرُّؤوسِ المطرقة وقتئذٍ، كانت مقلة أبيها تنهمر دمعًا؛ فرحًا بابنتِه، وحمدًا لربّه، وكانت أمّها تئنّ ملتحفةً بحجابها، وما حُدِّث أحدٌ بالقصّةِ إلّا بكىٰ ولهج لسانُ مقالِهِ تسبيحًا، وَلسانُ حَالِهِ حَمْدًا، كانت واقعةً معتلجة المشاعر مختلطة الأحاسيس، تغصُّ بالعواطف الخواطف.

والدة فاطمة وأختها

أثناء تلاوة فاطمة لمطلع سورة البقرة

عمة فاطمة، أمّ لمه **LAMA**، متأثّرة بالتلاوة

وقد حضـر عدد من الصـحفيين؛ لشُـهودِ الواقعة، كما حضر بعض من رعاها في المستشفىٰ، وحضر جمعٌ من أهلها وخَلْقٌ من السنغاليين الآخرين.

وتحدّث الأبُ في هذه المناسـبةِ العجِيبةِ فقال -وهو في غايةِ التَّأثُّرِ-: «أحمد الله علىٰ كل نعَمِه التي لا تُحصَىٰ؛ علىٰ هذه الكيفية التي عليها وجدتُ ابنتِي لأول مرة، وعلىٰ هذه التربية الإسـلامية، وهذه القراءة الماتعة لكتاب الله؛ كِدتُ أطيرُ فَرَحا وسـعادةً بِهذه التلاوة العطرة».

أبو فاطمة، إبراهيم باه، بعدما سمع تلاوة ابنته

ثم قال الأبُ مُستأنفًا كلامَه: «كان بالإمكان ألّا يحدث كل ذلك، لا هذه التربية ولا تلك الإجادة بتلاوة القرآن بهذا الأسلوب العجيب، بل أنا أصرّحُ أنّي كوالدها لم أصِل -حتىٰ الآن- إلىٰ هذا المستوىٰ في التلاوةِ، ولا هذا الحفظ والأداء!

وإنِّي -بعد حمد الله حقّ حمده-؛ أشكرُكم جزيل الشكر والتقدير، ولا أُطيق غير هذا القدر من الكلام؛

لبالغ الفرح والسرور الذي في داخلي، والله سبحانه هو المُتولي الجزاءَ والثوابَ اللائق بمقامِ الخيريةِ، وما أسدت إلينا اليوم من معروف لا يقدر قدره إلا هو سبحانه، شكرًا لكم».

أمّا والدتها؛ فلم تنطق بأيّ كلمة، من بالغ السرور وصدمة التعرّف إلىٰ فتاتها التي فقدتها منذ عشرين سنة!!!

والدة فاطمة باه

ومهما يكن من أَمرٍ؛ فإنّ والدة فاطمة وإن فاتَتها المشـــاركة باللغةِ المنطوقةِ؛ فما فاتتها المشـــاركة باللغةِ غيرِ المنطوقةِ، لغةِ الجســـدِ؛ فإنَّ ما في جُوانِيَّاتِها أبلغ من المنطق، علىٰ غرارِ قولِ الشاعرِ:

..... ورُبَّـــمَـــا

كـانَ الســـكوتُ عن الجوابِ جوابَا

إنّ هذا الحبور والســـرور، بعدَ طول الفِراقِ الذي بلغ عقـدينِ من الزمـانِ بـالتمـامِ والكَمـالِ، لو وزِّع علىٰ الأمهاتِ المنكوباتِ ســـنغاليًّا -لا بل إقليميا وعالَميا-؛ لَوَسِعَتْهُنَّ! كيفَ لا وهو قلبُ الأمِّ التي ظفرت بالمحبوبِ بعدَ انصـرَامِ حبلِ الرجاءِ وإدبارِه، وإقبالِ اليأسِ! -وليس من صـفات المؤمنة اليأس-؛ فإذا بفتحٍ من العليمِ الخبيرِ ينفرجُ واسِعًا!

العم الأصغر يصر على الإشادة بالجمعية بكل حماسة !

العمّ الأصغر علي باه

أصــر العمّ الأصــغر لفاطمة على أن يرســل إليّ صــوتيات يتحدث فيها باســم الأســرة والقرية لتوجيه تشكراتهم المتحمسة للجمعية.

وفي صــوتياته أشــاد العم الأصــغر بالأعمال الخيرية العظيمة للجمعية التي تصــل إلى كل مكان لا ســيما إليهم هم، حتى وكأنّ الجمعية خاصــة بهم، ثم دعا للجمعية وأن

توجد لها فروع في جميع الأماكن التي تصل خيراتها إليها.

ثم بعد هذا بدأ يشكر الجمعية، وكاد أن يبكي، لاحتضانها فاطمة باه وتغذيتها وتربيها تربية مثالية وتعليمها كامل القرآن الكريم وإرجاعها إليهم مهذبة ومؤدبة إلىٰ أقصىٰ الدرجة وقد بلغت الآن ثلاثة وعشرين سنة كاملة.

ثم قال بأن الجمعية لم تقتصر علىٰ هذا الصنيع الحسن، بل أضافت إلىٰ ذلك إحسانا منقطع النظير إلىٰ والدي فاطمة وإخوانها وأهل القرية فأكملت بناء بيت أبويها مبلطا ومطليا مع جميع مستلزماته من حمام داخلي ومطبخ وفراش فاخر وأرائك.. كما اشترت ثلاجة لأمها تتاجر بمثلجاتها مع قلب مثلج بالفرح. ناهيك عن هذا، فقد فرضت الجمعية معونة شهرية لفاطمة باه ولأسرتها، وبقية أفراد أسرة فاطمة يتلقون من حين لآخر مساعدات مالية ترسل إليهم من الجمعية.

أما أهل القرية فقد أراحت الجمعية نساء القرية من مشقة جلب الماء من بئرٍ نبعُها الجوفي بعيدٌ، فبنت محلها بئر أخرىٰ ارتوازية مزوّدة بالمضخّة وبرج الماء. بالإضافة إلىٰ ذلك فإن الجمعية أتحفتهم ببقرة ضخمة ذبحت مع تزويدهم بالخضروات وجميع مستلزمات الطبخ وتوزيع كل ذلك علىٰ أهل القرية.

يرىٰ العم الأصغر بأن كل هذا من بركات ولادة بنتهم فاطمة وقد صدق رسول الله ﷺ حين قال لرجل سمعه يدعو علىٰ بناته: «**لا تدع عليهن فإن البركة فيهن**». كما أن العم الأصغر عبر عن أن فرحهم سيزيد أكثر، لو أن الجمعية حققت لهم في المستقبل بناء مسجد لهم ومدرسة تكون فاطمة مديرة لها.

وأزف، هنا، إلىٰ أسرة فاطمة، الخبرَ السارّ، بأن الجمعية وافقت علىٰ تنفيذ ما طلب العم الأصغر.

إقامة حفلة عقيقة مرة ثانية:

أقمنا حفلة عقيقة مرة ثانية بحضور الأبوَين؛ ليفرحوا بابنتِهم فاطمة، لَكأنّها وُلدت السَّاعةَ؛ وألبسناها أجمل اللباس، وحلّيناها بأحلىٰ الحليّ، وجئنا بصديقاتها في الملجأ، اللاتي لم يعدن صديقاتها فحسب؛ بل صرن أخواتها وأهلها، وكانت بينهنّ كالأميرة بين وَصِيفاتها، واحتفلن سويًّا، وعمّت الفرحةُ قلوبَ الجميع.

وكم كنت أرجو أن أكون بينهم ببدني، أضمّ ابنتي فاطمة إلىٰ صدري وأقدم لها التهانِي، بهذا اللقاء المبارك الذي كثيرًا ما نفثت لي عن رجائِها بحصوله؛ إلا أنّه وإنْ باعدت بين أبدانِنا آلافُ الكيلومترات؛ كوني خارج السنغال وقتما احتفلوا؛ فروحي معهم، وقلبي سعيد لأجلهم:

وإنْ كانت الأجسادُ منّا تباعدتْ

فإنّ المدَىٰ بينَ القلوبِ قريبُ

هذا، وإن حبنا لفاطمة شرعيٌّ؛ وقد صدق من قال: «رُبَّ أخٍ لك لم تلده أمك»، فنحن لم تجمعنا سوىٰ الأخوة الإسلامية؛ ونأمل أن تدوم محبتنا في الله، طمعاً في ثواب المودّة الخالصة بأن نكون من السبعة الذين يظلهم الله في ظله: «ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه»[1]. كما نرجو أن تبقىٰ المودّة متّصلة علىٰ مدىٰ العمر، وفاطمة أهل للوفاء والإنصاف.

(١) متفق عليه.

فاطمة في حلّتها البهيّة يوم عقيقتها الثانية،

وهي بين أهلها

فاطمة باه، وتلتفّ حولها صديقاتها في الملجأ

موقف مؤثر جدًا في نفسي!!!

وبعد هذا الاجتماع الميمون، وقرب عودة أهلها إلىٰ بلدتهم، اتّصلتُ بفاطمة، وقلت لها: بنتي وحبيبتي، إلىٰ هنا انتهت مهمتي؛ فتجهّزي لتعودي مع أهلك، فقد تمّ الرَّجاءُ، ولله الحمد والمنّة، وإنّا وإنْ أحببناك وصرتِ بضعةً منّا؛ فلن نبخلَ علىٰ أمّك التي حملتكِ بين أحشائها تسعة أشهر، وغذَّتكِ من دمها! ولا علىٰ أبيك الذي نسلتِ من ظهره واشتاق إليك! ولا علىٰ سائر أهلك الذين يحبُّونك، أن ترجعي إليهم، لتهنؤوا بالعيش معًا!!!

ولمّا انتهيتُ مِن عبارتي، سألتني فاطمة بأدب جَمٍّ -كما هو عهدُها- أن تبقىٰ هنا في الملجأ حتّىٰ تتمَّ تحصيلها العلميّ وتتأهّل للعمل في الدرسة القرآنية؛ علىٰ أن تزور أهلها في الإجازة، وأيّدها والدُها فيما ذهبت إليهِ، وقال -مقرِّرا شأنًا آنِيًّا ومستقبليًّا عظيمًا بإذن اللهِ-:

لا تُنزَع فاطمة من يد السيدة حليمة؛ بل ستبقىٰ عندكم حتىٰ تتزوج برجل صالح ترتضيه السيدة حليمة لدينها ودنياها.

سررتُ بالغ السرور، وحمدتُ المولىٰ علىٰ حسن انطباعنا في قلب فاطمة وأهلها، وهذا إن دلّ علىٰ شيء؛ فإنما يدلّ علىٰ شدّة سعادة فاطمة بالدارِ، واطمئنانِها إلينا، ومحبّتها لنا، ويدلّ -أيضًا- علىٰ عُلوِّ همّتها وحرصها علىٰ تحصيل العلمِ النافع المورِثِ للعمَلِ الصَّالحِ.

ثمّ قلت لأهل فاطمة: فاطمة بنتنا، وأرجو الله أن يعينني علىٰ إكمال دراستها وتزويجها برجل صالحٍ طيّب.

ختامه مسك

ورجع الأهل إلىٰ بلدتهم، ليســوا فاقدين لابنتهم، بل واجدين لها، متلمّســين بركة القرآن الذي حملته في صدرِها.

وقد تمّ لفاطمة المراد، وزارت أهلها في الإجازة الصيفية، محمَّلةً بالهدايا، وعادت إلىٰ الملجأ.

فوائد مستقاة من قصة فاطمة باه

ينبغي للعقلاء أن يستخلصوا من كل خبر عِبرةً وحكمة؛ إذ الأخبار أقدار، ولا عبث في الأقدار، سبحان مَن قدّر فهدىٰ.

وممّا يمكن استخلاصه من القصّة المذكورة:

[١] ملاحظة الرعاية الإلهية لهذه الطفلة من الولادة إلىٰ أن لقيت أهلها.

[٢] استشعار إكرام الله -سبحانه- لهذه الطفلة؛ حيث ختمت القرآن الكريم في الملجأ.

[٣] يجب التأكد من الأخبار قبل نشرها وقبل اتخاذ أيّ قرار.

[٤] الإخلاص لله أساس كل شيء، وبه -لا سواه- وفقنا الله في تربية هذه الطفلة.

[٥] بركة القرآن على أهله.

[٦] الأخلاق الحسنة تجعل صاحبها محبوبًا لدى الناس.

[٧] التربية الدينية لها أثر عظيم في حياة الإنسان.

[٨] الصدق والأمانة أساس النجاح في كل شيء.

[٩] الأمور بخواتيمها.

[١٠] التعاون على الخير مقصد من مقاصد الشريعة، والله تعالى يحبّ عباده المتعاونين على الخير.

[١١] قد لا يلقى المسلم الأثر الماديّ لجبر الخاطر؛ لكنّه حتمًا يحسّ به في ضميره سكينةً وطمأنينةً ورضا.

تقديم جمعية الخيرية

أولاً: التعريف بالمنظَّمة:

أُسِّسَت جمعية التعاون الإسلامي للتربية والتعليم الخيرية في داكار في ٢٠ يناير ١٩٩٤م، وتمّ الاعتراف بها رسمياً بموجب الترخيص الحكومي تحت رقم 008183 /MINT /DAGAT /DEL الصادر بتاريخ ١٦/ ٠٣/ ١٩٩٥م، وتمّ الاعتراف بها كمنظّمة غير حكومية بموجب الترخيص الحكومي رقم 0012787 -/MINTSP/DAGAT/DEPONG /DAPI الصادر بتاريخ ١٨/ ٠٦/ ٢٠١٥م. وهي منظّمة غير ربحية، وتمثّل أنشطتها في العمل الخيري على أساس احترام مبادئ القانون والرفاهية مع استهداف الفئات المستضعَفة والأطفال، من خلال نظام التنمية والعدالة الاجتماعية. وتضمّ العديد من الأعضاء داخل السنغال وخارجها، ومقرّها شارع برقيبة، بناية رزيدا سرنج عباس سال، دكار السنغال، رقم الهاتف: ٠٠٢٢١٧٧٦٣٧٣٠٧٦/ ٠٠٢٢١٧٧١٢٩٨٨٨٨، البريد الالكتروني: afsall2000@yahoo.com، ص.ب: ١٠٥٣٨.

ثانياً: أهداف المنظّمة:

تسعىٰ الجمعية إلىٰ تحسين الظروف المعيشية للسكّان من خلال تيسير الحصول علىٰ المياه والصحة والتربية والخدمات الاجتماعية والتربية الإسلامية وتعزيز قدراتهم التنظيمية وتقنيات الإدارة، من خلال عملية الشراكة بين مختلف الأطراف الفاعلة تسهيلاً للتكامل.

ويتمثّل هذا الهدف العامّ في عدد من المحاور هي:

- المساهمة في التربية ومحو الأمّيّة من أجل تحقيق تربية شاملة للجميع.
- المساهمة في تحسين الظروف المعيشية للفقراء والمساكين، من خلال تسهيل الخدمات الأساسية في مجال الـ صحة والاجتماع وتوفير العمل المدرّ للدخْل، وتوسيع خريطة المياه وتقريب أماكن التزود بها من خلال حفر الآبار، وإنشاء سلسلة تضامنية عن طريق توزيع المواد الغذائية للفقراء في كل المناطق، وتوزيع وجبات إفطار خلال شهر رمضان، حيث يوزّع ١٢٠ طنّاً من التمر في جميع مناطق السنغال وما حولها في كل عام، وتُجمَع الزكاة لتُصرَف إلىٰ مصارفها.

- المساهمة في تعزيز الأنشطة الدينية للمسلمين من خلال بناء المساجد وتجهيزها، حيث تم بناء أكثر من ٢٥٠ مسجداً كبيراً في السنغال وحولها.
- المساهمة في مكافحة التسوّل وتشرّد الأطفال والجنح الطفولي، من خلال إنشاء مدارس قرآنية حديثة، ودور للأيتام، لصالح الأطفال المعوزين والفقراء. وقد أُنشئت ٦ مراكز دور للأيتام في السنغال، تضمّ ٣٤٠ يتيماً.
- المساهمة في تعزيز الصحة من خلال بناء وتجهيز مركز صحي في كل منطقة محتاجة، وإنشاء لجان صحية بالاتفاق مع وزارة الصحة، والتوعية حول الأمراض الفيروسية، وكذا توزيع الأدوية مجاناً.
- المساهمة في دعم السلطات المحليّة في تنفيذ الاستراتيجيات من أجل تحقيق التنمية المستدامة محلياً.
- المساهمة في تنمية الحرف اليدوية والثروة الحيوانية.
- العمل على تشجيع التفاهم بين مختلف الجماعات القبلية والدينية في البلاد، بنشر ثقافة السلام والتربية والتوعية الجماعية.

فهرس محتويات القصّة

إهداء ٦
شكر وتقدير ٧
خواطر المترجم عن هذه القصة ٨
سبب تأليف القصة ١٦
المقدمة ١٧
عام ٢٠٠٠ م.. البداية...! ١٩
فاطمة باه في أَرْوِقةِ الجمعيةِ الخيريةِ (O.N.G Alkhairia) ٢٢
السيد مايرو سال، مدير دار الأيتام بالجمعية، متحدثاً عن فاطمة وقضيتها ٢٦
مع السيّدة وُلِي انجاي، مسؤُولة المربيات في ملجأ الأيتام ٣١
خفايا الأشواق لا بدّ لها من شروق ٣٣
السيّدة أمّ كلثوم سال، مرضعة فاطمة باه، ودورها الفعّال

في البحث عن والدَي فاطمة ٣٥
امرأةٌ تتصل بالإعلامِ لتدل علىٰ أولياءِ أمرِ فاطمة ٤٦
موقف الأب حين سـمع الخبر لأول مرة، ودهشـة لَمَه (خبّاز الملجأ)..... ٤٧
وصـول أهل فاطمة إلىٰ الملجأ، مقرِّ إقامة فاطمة مدةَ عشرين ربيعا ٥٦
العم الأصغر يصر علىٰ الإشادة بالجمعية بكل حماسة! ٦٤
إقامة حفلة عقيقة مرة ثانية ٦٧
موقف مؤثر جدا في نفسي!!! ٧١
ختامه مسك ٧٣
فوائد مستقاة من قصة فاطمة باه..... ٧٤
تقديم جمعية الخيرية ٧٦
فهرس محتويات القصّة ٧٩

تعريف موجَز بالمؤلِّفة

الدكتورة حليمة سال، ابنة العالم السنغالي الشهير سيرين عباس سال دي لوغا، القارئة المُقرِئة الفقيهة صاحبة التآليف النافعة. ولدت في لوغا عام 1961م، في أسرة دينية علمية، وختمت القرآن برواية ورش على يد بعض شيوخ بلدها السنغال، وفي الآن نفسه تضلّعت من المعارف اللغوية والفقهية والحديثية. بعد زواجها، سافرت إلى القاهرة، وأخذت إجازات في القراءت والإقراء والتجويد على بعض شيوخ الأزهر. ثم انتقلت إلى الإمارات العربية المتحدة عام 1984م، وبدأت دراستها النظامية من الصفّ الأوّل الابتدائي، حتّى أنهت الدراسات العليا، رغم كونها زوجة وأماً ومعلّمة.

الدكتورة حليمة سال مؤلِّفة غزيرة الإنتاج، صدر لها عدد من المؤلَّفات النافعة، منها: (روايتا ورش وحفص: دراسة تحليلية مقارنة)، رسالة الماجستير. وحققت جزءاً من شرح القصيدة العلوية في القراءات لابن القاصح (الآمال المَرْضِيَّة في شرح القصيدة العلوية) في مرحلة الدكتوراه. كما صدر لها التحفة السنغالية لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، طبع مرتين. وروضة المتعلم، طبع مرتين. ومنهج التربية الإسلامية، لطلاب الجمعية الخيرية، أربع مستويات. ولها أيضاً خلاصة الوقف والوصية في الإسلام، بالعربية والفرنسية

ولأنّ زكاة العلم تعليمه، فهي تعمل في التدريس عبر المنصات الرقمية عملاً دؤوباً. كما أنّ لها نظرات سديدة في المجال الاجتماعيّ، من خلال إنشاء دُور الأيتام، من خلال المنظمة غير الحكومية (الخيرية)، ودعم الفقراء في السنغال، وتعزيز التعليم الإسلامي

إنّ مسيرة الأستاذة الحياتيّة تشهد ببركة القرآن عليها وبركة الأب والأم الصالحَين، ولله الحمد والمنّة